الحضور العلمي لفقهاء وعلماء الجزائر في بلاد الحجاز - نماذج مختارة–

The scientific presence of Algerian jurists and scholars in the country of Hijaz - selected models–

عواد المنور [1] *، زديرة نوال [2]

[1] جامعة بن يوسف بن خدة (الجزائر)، m.aouad@univ-alger.dz

[2] جامعة بن يوسف بن خدة (الجزائر)، n.zedira@univ-alger.dz

تاريخ الإرسال: 2023 /02/26 تاريخ القبول: 2023 /03/13 تاريخ النشر: 2023/06/10

الملخص:

الرحلة في طلب العلم جسر من جسور التواصل بين المشرق الإسلامي ومغربه خصوصا بلاد الحجاز التي مثلت دار الإسلام، فارتحل إليها طلاب العلم من بلاد المغرب والأندلس لتلقي مختلف العلوم الشرعية، وقد حازت مكّة المكرمة، ومدينة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– المكانة الأبرز في نشر الثقافة الإسلامية، وكانت المقصد الأول لطالبي المعرفة نتيجة للعدد المعتبر من العلماء الذين اجتمعوا في الحاضرتين وتصدروا مجالس الدرس والإقراء.

وبتنامي وارزدهار الحركة العلمية في بلاد الحجاز قرر بعض علماء المغرب الأوسط الرحلة إليها، والإقامة في جوار منابع العلم، فغنموا من مختلف روافد المعرفة، وساهموا في إثراء الحياة العلمية والاجتماعية والاقتصادية بفكرهم، بحسب وظائفهم ومكانتهم، وسوف يسلط هذا البحث الجهد في تتبع الحضور المغاربي لعلماء المغرب الأوسط في الحياة الحجازية ومساهمتهم في مجال التعليم والمهن والوظائف الاجتماعية والاقتصادية.

الكلمات المفتاحية: بلاد الحجاز؛ علماء؛ المغرب الأوسط (الجزائر)؛ التدريس؛ المهن؛ الوظائف.

* المؤلف المرسل

Abstract:

The journey in seeking knowledge is one of the bridges of communication between the Islamic East and its West, especially the country of Hijaz, which represented the House of Islam, so students of knowledge traveled to it from the countries of Morocco and Andalusia to receive various legal sciences. Spreading Islamic culture, and it was the first destination for knowledge seekers as a result of the significant number of scholars who gathered in the two cities and took the lead in the study and reading councils.

With the growth and prosperity of the scientific movement in the country of the Hijaz, some scholars of the Middle Maghreb decided to travel to it and reside in the vicinity of the sources of knowledge. Middle Maghreb in the Hijazi life and their contribution in the field of education, professions and social and economic functions.

Keywords: Hijaz countries; scientists; Middle Maghreb (Algeria); teaching; professions; jobs.

مقدمة:

اعتبرت الرحلات العلمية لعلماء المغرب الإسلامي باتجاه بلاد الحجاز في العصر الوسيط مظهرا من مظاهر التواصل المعرفي، والتبادل العلمي، نظرا للمكانة الخاصة التي حظي بها ذلك المجال الذي مثل دار الإسلام في وجدان الأمة وتفكيرها، فأضحى بذلك مركزا لتجمع المسلمين قاطبة لتلقي العلوم، ونشر الثقافة الإسلامية في مختلف الحواضر والمدن، الشيء الذي شدّ همة علماء المغرب الإسلامي، والمغرب الأوسط على وجه الخصوص، ودفعهم للرحلة إلى البلاد الحجازية التي كانت تشهد حركة علمية وثقافية واسعة، خصوصا في مكّة المكرمة والمدينة المنورة اللتان جمعتا عددا معتبرا من العلماء المرموقين مشرقا ومغربا على مر العصور يساهمون ويرتشفون من منابع العلم الصافية صنوفا شتى.

ونتيجة لهذا المشهد الثقافي المرتسم في البلاد الحجازية تولدت الرغبة لدى العلماء المغاربة في جوار منبع العلم، بدل البقاء في الديار، فشاركوا بعلمهم وفكرهم، وتحصيل العلم والمعرفة، وشرف

تعليمه للناس، كما ساهموا في إثراء الحياة العلمية في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وإنعاش الحياة الاجتماعية والاقتصادية بحسب مواقعهم ووظائفهم.

ويكتسب هذا الموضوع أهميته البحثية من خلال تتبع المسار العلمي والمساهمة الاجتماعية لعلماء وفقهاء المغرب الأوسط في البلاد الحجازية خلال العصر الوسيط، ورسم صورة عن تأثيرهم في الأوساط الحجازية، بعد التعرف على سيرة المشاهير منهم والمغمورين بحسب ما طالته المادة الخبرية المجموعة، ودرت به مصادر ذلك الزمان، لإبراز حجم الحضور المغربي في مجال العلوم والمهن والوظائف، والتوفيق بين الجانب العلمي والعملي، وقد وجد منهم العالم المحدّث، والمقرئ، والفقيه، والمؤدب، والمؤذن والقاضي والتاجر.

وارتكازا إلى ما سبق يمكن طرح الإشكالية في هذا السياق كالتالي:

ما طبيعة وكم الإسهام العلمي لعلماء وفقهاء الجزائر في بلاد الحجاز؟

وهل أثروا الحياة العلمية دون تسجيل مساهمات في جوانب أخرى؟ وما حدود تأثيرهم في الوسط الحجازي؟ ما طبيعة الوظائف التي تقلدوها والمناصب التي شغلوها؟

لقد رسمت كتب التراجم والطبقات صورة لعديد المغاربة التي أثروا الحياة العلمية بالحجاز خصوصا علماء المغرب الأوسط (الجزائر)، بحيث لمعت أسماء جملة من العلماء وذاع صيتهم خلال القرن (7-9هـ/13-15م) نتيجة مساهماتهم العلمية في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وبالنظر لما تقلدوه من مناصب وكراسي علمية واجتماعية وحتى سياسية، وإثراء انتاجهم العلمي خزائن ومكتبات الحرمين وبلاد الحجاز بشكل عام، ومن العلماء الذين نالوا المكانة الرفيعة، وبلغوا أهدافهم السامية نذكرهم حسب مساهماتهم ووظائفهم:

1- مجال التدريس والتعليم:

_عبد القوي بن محمد بن أحمد بن محمد بن علي أبو محمد البجائي(ت 816هـ/1413):المعروف بابن عبد القوي المالكي[1]، تميز في علم الفقه، وقد قدم مكة واستقر

فيها وجاور بها مدة ثلاثين عاما، تخللتها فترات قليلة قضاها في الطائف، وخلال تلك الفترة تفرغ لتدريس الفقه والإفتاء، هذا ولم تذكر المصادر شيئا من مصنفاته أو من درسوا عليه، وقد اتصف عبد القوي البجائي بالورع وكثرة العبادة، ولأهل مكة فيه اعتقاد بالصلاح والتقى[2]، قال عنه تقي الدين الفاسي:" تفقه وأفاد ودرس وأفتى، وكان خيرا دينا"[3].

ـالشيخ إبراهيم ابن رجب بن حماد التلمساني (ت755هـ/1354م): قال عنه ابن فرحون:" كان من المشائخ العلماء الورعين المتنسكين في الخير"[4]، كان مدرسا بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة، وله كتب جليلة في الفقه[5].

ـعبد الرحمان بن محمد بن مخلوف الثعالبي المالكي الجزائري (ت 876هـ/1471م): من كبار المفسرين[6]، ولد ونشأ بوادي يسر جنوب شرق الجزائر، وتلقى العلم فيها، رحل إلى أهم الحواضر العلمية المتواجدة بالمغرب ومن العلماء الذين درس عليهم أبي القسم العبدوسي، والبرزلي، والغبريني، وأبي الحسن علي بن عثمان المانجلاتي[7]، ومن ثمة اتجه إلى المشرق رغبة منه في المزيد من لقاء الأئمة للاستزادة من العلوم، ومن علماء مكة الذين أخذ عنهم خاصة في علم الحديث الولي العراقي[8] ، دخل مكة ثم جاور فيها واشتغل بالوعظ والرقائق وتدريس التفسير، وله ما يزيد عن الستين مؤلفا منها: "اختصار تفسير ابن عطية"[9] في جزأين، وله أيضا "الجواهر الحسان في تفسير القرآن" في أربعة أجزاء، وكتاب "الذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز"، كما تميز عبد الرحمان الثعالبي في علم الحديث والفقه، وله العديد من المؤلفات منها: " نزهة الأخيار" في الفقه، و"جامع الهمم في أخبار الأمم" في أحكام العبادات، وكتاب" رياض الصالحين"[10].

ـخليل بن هارون بن مهدي بن عيسى الجزائري (ت 826هـ/1422م): هو أحد العلماء الجزائريين الذين جاوروا بمكة واشتغلوا بتدريس علم الحديث في الربع الأول من القرن التاسع، تنقل بين الحواضر الإسلامية لطلب العلم كمصر والشام والحجاز[11]، ومن شيوخه في مكة ابن صديق والزين المراغي، والقاضي علي النويري والشريف عبد الرحمان الفاسي، أما شيوخه في مصر مثل السراج البلقيني، وعبد الله بن أبي بكر الدماميني، وأجازه للتدريس العديد من العلماء[12]، تفرغ للاشتغال بالتدريس في مكة مدة عشرين عاما، وله العديد من المصنفات منها: مجلد في

الأحاديث القدسية، وله مجلد كبير في الأذكار يسمى " تذكرة الإعداد لهول يوم الميعاد "، واختصره في مجلد صغير[13].

صالح بن محمد بن موسى بن أحمد الملقب بالزواوي (ت 839هـ/ 1435م): انتقل إلى مصر طلبا للعلم و سمع من مشاهير العلماء بها أمثال الشرف بن الكويك، والجمال الحنبلي، وحماد التركماني والولي العراقي، وابن حجر العسقلاني، ومن علماء المدينة الذين سمع منهم الزين المراغي ورقية ابنة مزروع وآخرون[14]، كما أجازه العديد من العلماء، قدم مكة لأداء فريضة الحج، ثم جاور في المدينة المنورة فترة لم تحددها المصادر، اشتغل خلال تلك الفترة بتدريس علم الحديث في المدينة، وسمع منه الحديث العديد من الفضلاء وطلاب العلم[15].

الشيخ أبو عصيدة أحمد بن أحمد البجائي (ت865هـ/1460م): الغساني الأصل، ولد سنة 822هـ/1419بمدينة بجاية، ونشأ فيها بدأ بحفظ القرآن في سن الخامسة من عمره وأكمله في سنتين ونصف، ثم اشتغل في حفظ المتون العلمية في التفسير والفقه والقراءات، تعلم على شيوخ من عائلة المشدالي، ومنهم محمد المشدالي مفتي بجاية وعالمها ووالد صديقه أبي الفضل المشدالي[16].

اشتهر برحلته الموسومة ب"رسالة الغريب إلى الحبيب"، وقد جاء في نص الرحلة أنه كان يدرس الحديث ويشرح صحيح مسلم في المسجد النبوي، وكان أكثر نشاط في شهر رمضان حيث كان يجتمع إليه جمهور عجيب، كما أعطى دروسه بين المنبر والضريح وهو مستقبل الحجرة ومستندا على المحراب، وحوله جمع غفير من الطلاب والعلماء[17]، كما كان يشرح كتاب الصحيح الجامع للإمام البخاري، وكتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض[18].

الشيخ محمد بن مبارك (ت 868هـ/1464م): هو محمد بن مبارك القسنطيني المالكي، ذكر السخاوي أنه جاور في المدينة المنورة[19]، ولم تحدد المصادر تاريخ دخوله بلاد الحرمين، واشتغل بتدريس اللغة العربية فيها، كما برع في علم الفقه وامتدحه أهل المدينة لخلقه وعلمه[20]، ومن شيوخه محمد بن عيسى النواجي الأزهري الشافعي(ت 879هـ/1474م)، كما قرأ عليه الشفا سعيد بن أبي بكر بن صالح(ت887هـ/1482م) بالمدينة المنورة[21].

أحمد بن يونس القسنطيني المغربي (ت878هـ/1473م): نزيل الحرمين فبعدما حج وجاور مكة وسمع بها على الجلال والجمال ابني المرشدي وأخذ عنهما العربية، ثم عاد إليها ليسكنها سنة 864هـ، ليتصدى فيها الإقراء والعربية والحساب والمنطق، وأخذ عنه غير واحد من أهلها والقادمين عليها(مكة)، ومن جملة ما ترك في اللغة قصيدة امتدح بها سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم يقول في مطلعها[22]:

يا أعظم الخلق عند الله منزلة ومن عليه الثناء في سائر الكتب

يحي بن أحمد أبو زكريا المعروف بالعلمي (ت 888هـ/1483م): من مشاهير العلماء الجزائريين، ولد بقسنطينة ونشأ بها وحفظ القرآن وأخذ العلم من علمائها أمثال عمر القلشاني قاضي الجماعة، ثم سافر إلى القاهرة ومن العلماء الذين أخذ عنهم، الهمام، والقاياتي، والزين الزركشي، وابن حجر العسقلاني، ثم انتقل إلى بلاد الحرمين وتعلم على مشاهير العلماء بها أمثال أبي الفتح المراغي، والجمال الكازروني وغيرهم[23].

من الذين قصدوا مكة للحج أكثر من مرة، كانت المرة الأولى عام 841هـ/1337م، بينما كانت المرة الثانية عام 875هـ/1470م، وجاور فيها واشتغل بتدريس اللغة العربية وعلومها، كما تميز أيضا في علم الحديث، وعلم الفقه وعلم المنطق، وله العديد من المصنفات، منها شرح على المدونة والمختصر والرسالة بخط يده، شاهدها البدر القرافي وذكر أنه كان بها تلف في أطرافها[24].

أحمد بن يحي بن عيسى بن عياش العوكلي القسنطيني (ت860هـ/1455م): هو أحمد بن يحي بن عيسى بن عياش بن إبراهيم العوكلي القسنطيني، نزيل مكة وشيخ رباط الموفق، عالم مالكي من أهل قسنطينة، نشأ وتعلم بها[25]، رحل إلى المشرق وحج ثم استقر بمكة وولي مشيخة رباط الموفق إلى أن توفي، قال عنه السخاوي:"كان ماهرا في آلات التجارة"[26].

حمزة بن محمد بن حسن البجائي (902هـ/ 1496م): ولد سنة 839هـ، وحفظ القرآن، ثم سافر إلى تونس، وأخذ العلم من مشاهير العلماء بها، أمثال أبي إسحاق الأخذري، وأبي القاسم

المشدالي، وولده محمد الأصغر، من العلماء الجزائريين الذين قدموا للحج أكثر من مرة،كانت الأولى عام(877هـ/1472م)[27]، وبعد عودته من الحج نزل في الخانقاة الشيخونية، وحضر مجالس العلم كمجلس التقى الحصني، والتقى بالأعيان والفضلاء أمثال المحيوي بن تقى، والخطيب الوزيري، وقد جاور في مكة بعد انتهائه من الحج في المرة الثانية، واشتغل بتدريس المنطق، وسمع منه طلاب العلم، كما تميز في بعض العلوم كاللغة العربية والصرف والبلاغة[28].

جعفر بن عبد الرحمان بن جعفر بن عثمان الصقلي البجائي (ت644هـ/1246م): هو جعفر بن عبد الرحمان بن جعفر بن عثمان بن عبد الله السلمى الصقلي المحتد البجائي المولد، ولد سنة 588هـ/1192م، روي عن القاضي أبي نصر محمد بن هبة الله بن مميل الشيرازي[29]، درس بالمدرسة المنصورية وحدث بها، سمع منه بها الحافظ شرف الدين الدمياطي[30]، ومحمد بن عمر محمد ضياء الدين القسطلاني، وقد تولى بها درس الحديث لأن درس الفقه كان على المذهب الشافعي[31].

محمد بن ميمون أبو عبد الله الجزائري (801هـ/1398م): المعروف بابن الفخار، أصله من الأندلس ومولده بالجزائر من بلاد المغرب، قرأ بها القرآن والفقه، ثم انتقل إلى تلمسان وأقام بها، وثابر على قراءة العلم على شيوخها منهم أبو سعيد العقباني قاضي الجماعة في تلمسان، وأبو مهدي الغبريني، وابن عرفة وغيرهم، وأقام بتونس سنة أو أكثر بقليل، ثم ارتحل إلى مصر فأقام بها أشهرا، ثم دخل إلى مكة لآداء فريضة الحج حوالي 796هـ/1393م، ثم أقام بالمدينة المنورة[32].

قال السخاوي في كتابه" الضوء اللامع": " توجه إلى الحجاز وسكن بالمدينة المنورة خمسة أعوام يؤدب فيها الأبناء"[33]، وقال عنه تقي الدين الفاسي:" هذه الحكاية كتبتها من حفظي بالمعني الذي حدثني به الشيخ خليل ابن هارون (766ـ 826هـ/1365ـ1423م)، وفيها منقبة للشيخ أبي عبد الله بن الفخار، وكان من العلماء العاملين الصالحين الأخيار"[34].

توفي بمكة في عصر يوم الخميس التاسع والعشرين من رمضان سنة (801هـ/1398م)، ودفن في صبيحة يوم الجمعة وكان ـ يوم العيد ـ قبل صلاة العيد بالمعلاة[35].

محمد بن موسى بن عائذ الغماري المغربي (756 –827هـ/1355 –1423م): هو الشيخ محمد بن موسى بن عائذ أبو عبد الله الغماري المغربي الوانوغي المالكي نزيل مكة، وشيخ رباط الموفق، يقول تقي الفاسي عن قدومه إلى مكة:" وكان قدومه إلى مكة في سنة ثمانين وسبعمائة، أو قربها، وله من العمر ــإذ ذاكــ أربع وعشرون سنة، هذا معنى ما بلغني عنه في تاريخ قدومه بمكة وسنه... وولي مشيخة رباط الموفق بمكة، والنظر في مصالحه سنين كثيرة، ولم يكن يعارضه فيما يختاره في ذاك أحد من فضلة مكة "[36].

واتفق كل من تقي الدين الفاسي وشمس الدين السخاوي: على أنه أجاز عبد القادر بن أبي القاسم محمد المالكي قاضي مكة، حيث حضر عليه دروسا كثيرة قراءة وسماعا، ببحث وتحرير في "ابن حاجب" و "المختصر" الفرعين وغيرهما من الكتب المالكية، وأذن له التدريس في جميع الكتب المالكية[37].

محمد بن أحمد بن محمد العجيسي التلمساني المالكي (ت 842هـ/1438م): المحدث المسند المعروف بابن مرزوق، من علماء المغرب الذين شاركوا في النشاط العلمي بالحجاز[38]، فقد حج سنة 819هـ/1416م وسمع من البهاء الدماميني بالإسكندرية، والنويري بمكة، ودخل القاهرة وقرأ على البلقيني، وابن الملقن، والعراقي وغيرهم، ولازم المحب بن هشام في العربية، ، ولقيه بعض علماء مكة وقرأوا عليه " ثلاثيات البخاري"[39]، وله عدة مؤلفات في الحديث واللغه العربية وغيرها من العلوم، مثل "المتجر الربيح والمسعى الرجيح" و" إظهار المودة في شرح البردة"، و" الذخائر القراطيسية في شرح الشقراطيسية" [40]، وحج مرة أخرى ولقى جماعة من الأعيان وأخذ عنه ابن حجر، وهو أخذ عنه قطعة من شرح البخاري وأخذ عنه جماعة من علماء القاهرة[41]، لكن نشاطه العلمي في مكة لم يكن كبيرا لأن إقامته فيها كانت قصيرة.

2– القضـاء:

القضاء هو منصب رفيع وهو من الوظائف التابعة للخلافة يقول ابن خلدون:" إن القضاء من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب فصل بين الناس في الخصومات حسما

للتداعي وقطعا للتنازع، إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة، فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجا في عمومها "[42].

ويعتبر القضاء من الوظائف الأساسية في المجتمع الحجازي بالخصوص، لكونه يضم أعظم المدن "مكة والمدينة". فكان القضاء بهما ذا أهمية خاصة نابعة من أهميتها في نفوس المسلمين، لذلك كان لقاضي مكة أو المدينة مكانة محترمة في نفوس الحكام والعامة، فكان يعد في المرتبة الثانية بعد شريف مكة أو المدينة المنورة.

ولهذا امتنع كثير من العلماء عن قبول منصب القضاء خوفا من تدخل السلطة الحاكمة في شؤونهم، وقد نال بعضهم أذى كبيرا جراء هذا الامتناع[43]، وكان القضاء بالحجاز يتبع المذهب الشافعي وقلة يتبعون المذاهب الأخرى، لذلك لم نجد من العلماء الجزائريين الذين تولوا هذا المنصب الخطير والحساس سوى عالما واحدا ألا وهو:

محمد بن عبد القوي البجائي(ت 852هـ/1448م): ذكر صاحب كتاب " التبر المسبوك " أنه ناب في الحكم عن الكمال بن الزين القسطلاني، وأبي عبد الله النويري في تحريره للعقود بمكة[44].

وأول من مارس القضاء من قضاة المغرب الإسلامي بصفة عامة بالمدينة المنورة عبد الله بن فرحون التونسي الذي ناب في القضاء نحو أربعة وعشرين عاما، وأم في المحراب النبوي بعض الصلوات[45]، كذلك نجد القاضي برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن أبي القاسم ابن فرحون المالكي(ت 799هـ/1397م) الذي تولى أيضا القضاء بالمدينة المنورة سنة 793هـ، واستطاع أن يصنف بها مؤلفين اثنين اسماهما: " التبصرة في آداب القضاء " في مجلد كبير، و " تسهيل المهمات في شرح جامع"[46].

3- المناصب الاجتماعية:

لم يقتصر إسهام العلماء الجزائريين على جانب المناصب الدينية فقط بل إنهم ساهموا بجهودهم الفردية والجماعية في ميادين الحياة، ومنها الجانب الاجتماعي، حيث أثبتوا فعاليتهم

ونشاطهم بتقلدهم لبعض المهن والوظائف تربوية كانت أو اجتماعية، بفضل علمهم وخبرتهم خصوصا وأنها مرتبطة ارتباطا وثيقا بتعاملات المجتمع الحجازي، فقاموا بها على أحسن وجه طبعا بشهادة أهل البلد من أهل الحجاز أو " المجاورين" من البلدان الأخرى، ومن هذه الوظائف نذكر:

4- إدارة الأربطة بالحرمين:

كانت مهمة الربط في بلاد الحجاز إيواء الفقراء والمنقطعين، وطلاب العلم والمجاورين للمسجد الحرام أو المسجد النبوي من جميع أنحاء العالم الإسلامي بعد أن كانت مهمته في بداية الأمر الدفاع عن الأراضي الإسلامية، وقد التجأ إليها العلماء الرحالون طلبا للحديث النبوي أو علوم الدين، أو علوم اللغة العربية وغيرها، كما كان هؤلاء العلماء يجدون في هذه الربط متعة المطالعة والكتابة والاستنساخ والتأليف[47]، ومما حفزهم على ذلك هو وجود بعض المكتبات الموقوفة بتلك الربط، هذا وقد أسهم علماؤنا المغاربة والجزائريين بصفة خاصة بنصيبهم الوافر في إدارة وتولي مشيختها أو نظارتها، ومن بين العلماء الذين تولوا مشيخة رباط المغاربة وإدارته نجد:

أحمد بن يحي بن عيسى بن عياش بن إبراهيم العوكلي القسنطيني (ت 860هـ/1455م): ذكر السخاوي أنه تولى مشيخة رباط المغاربة بمكة، ونقل عنه مهارته بآلات التجارة[48].

عثمان بن محمد بن علي الصنهاجي (ت 863هـ/1393م): عالم مالكي جزائري، رحل إلى بلاد الحجاز، واستقر في رباط الموفق، ودرس فيه إلى أن توفي[49].

5- تعليم وتأديب الأطفال:

كانت مهمة تعليم الأطفال بمكة أو المدينة تقوم بها مؤسسات نظامية أو وقفية خاصة، مهمتها تعليم الطفل وتثقيفه كي يؤهل للتعلم بالحرمين الشريفين، ومن هذه المؤسسات نذكر:

6- الكتاتيب:

إن الكتاتيب بمكة أو المدينة المنورة لم تخل زوايا مسجديهما من التعليم حيث حفلت بكوكبة من معلمي الأطفال من المغاربة، ومن الجزائريين الذين أظهروا نشاطا تعليميا أو تأديبيا بالمدينة نجد:

يحي القسنطيني (ق 08هـ/14م): يعد الشيخ يحي القسنطيني من رجال زمانه ورؤساء إخوانه، قرأ القرآن في شبوبيته فحفظه وجوده، ثم حفظ "الرسالة" في مذهب مالك، واشتغل بالعلم وسمع الحديث، وأقرأ القرآن وانتفع عليه جماعة، كان من مدرسي القرآن للصبيان في الحرم النبوي، وقد انتفعوا به[50].

عمر بن سالم بن بدر السراج الوراقلي الجزائري المغربي (حي سنة 767هـ/1365م): حيث ذكر السخاوي أنه كان يؤدب الصبيان بالمدينة المنورة[51].

7- المدارس النظامية الوقفية:

1.7- مدارس مكة:

تأخر ظهور المدارس كمؤسسة علمية نظامية إلى ما بعد القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، قد كانت هذه المدارس ذا قيمة علمية واجتماعية سواء بمكة أو المدينة المنورة، وكانت تؤدي دورها التعليمي بجانب تلك الحلقات التي كانت تعقد بالمسجدين " الحرام والنبوي "، وساهمت هي الأخرى في تنشيط الحياة العلمية بالحجاز عموما، ومكة بشكل أخص كونها محط رحال العلماء وطلبة العلم، ولأهمية هذه المؤسسة العلمية والتعليمية في الوقت ذاته ظهر نشاط لعلمائنا في هذه المؤسسة نذكر على سبيل المثال:

المدرسة المنصورية: أنشأها الملك المنصور عمر بن علي بن رسول ـ صاحب اليمن ـ سنة 641هـ/1246م، ثم أوقفها على طلبة وفقهاء المذهب الشافعي، وأهم الفقهاء الجزائريين الذين

تولوا التدريس بها، **الفقيه المحدث جعفر بن عبد الرحمان بن جعفر السلمي الصقلي البجائي (ت 644هـ/1246م)**، وسمع منه بها الحافظ شرف الدين الدمياطي، وكان يحدث بها[52].

7. 2- مدارس المدينة المنورة:

ظهرت المدارس الوقفية مع بدايات القرن السادس هجري وصولا إلى القرن السابع للهجرة ولمح إلى ذلك النعيمي من أن فخر الدين عثمان بن الزنجبيلي كانت له رباط بالمدينة المنورة في عام 577هـ[53]، حيث يعتبر أول مدرسة بالمدينة المنورة خلال القرن السادس هجري، غير أن علمائنا الجزائريين والمغاربة بصفة عامة لم يظهر نشاطهم إلا بعد القرن السابع للهجرة، وتمثل ذلك الشيخ سليمان الونشريسي(ت 756هـ/1355م) صاحب ابن فرحون الذي خلف الشيخ إبراهيم العريان الرومي صاحب المدرسة الشيرازية بالمدينة المنورة حينما توفي سنة 730 هـ[54]، فكان واقفا عليها ومجتهدا في عمارتها.

المدرسة الشيرازية: من الشيوخ المعمرين في المدرسة الشيرازية "إبراهيم العريان الرومي" . رحمه الله .(ت 730هـ/1329م)، حيث يعتبر المؤسس الثاني للمدرسة، وله فيها آثار حسنة، وكانت هذه المدرسة محترمة لا يدخلها إلا الأخيار من الناس، واشترى نخلا وأوقفه عليها واجتهد في عمارتها بنفسه وماله.

ثم خلفه بعد وفاته الشيخ الجزائري أبو الربيع سليمان الونشريسي (ت 756هـ/1355م) في إدارة شؤون المدرسة[55].

8- دور علماء الجزائر في إصلاح المجتمع (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر):

من الأمور التي امتاز بها علماء المغرب الإسلامي بصفة عامة وعلماء الجزائر بصفة خاصة بالمدينة المنورة سعيهم إلى إحقاق الحق وألا يخشى في الله لومة لائم، ومن جملة أعمالهم نجد العالم الجزائري:

أبو محمد عبد الله البسكري: أوى إلى المدينة في وقت شديد، على قدم التجريد، فأقام أولا بالمدرسة الشهابية مدة، ثم انتقل إلى رباط دكالة، كان إذا رأى منكرا غيره بيده ولسانه، وكان مما يعد من كرامات الشيخ " أبي محمد البسكري "، أنه لا يأتيه مظلوم يشتكي عليه ظالمه إلا وشفع له، فإن شفع فيه، وإلا عجلت عقوبة الظالم في وقته[56].

9- المهن الاقتصادية:

عرفت بلاد الحجاز عددا من الحرفيين المغاربة والجزائريين والأندلسيين، مارسوا بعض المهن والحرف كي يتكسبوا بها، ويعينوا بها أنفسهم على نوائب الدهر كالتجارة والصناعة والزراعة أيضا.

الصناعة: مثل مهنة:

تجليد الكتب: وهي حرفة تمتاز بتجليد الكتب قصد حفظها من الضياع والتلف وقد امتهن هذه الحرفة من الجزائريين:

الشيخ محمد التلمساني(ت754هـ/1353م): فقد ذكر عنه ابن فرحون أنه اشتغل بتجليد الكتب بالمدينة المنورة[57]، وكان ذلك خلال القرن الثامن الهجري.

الوراقة والنساخة: وهي نسخ الكتب وكتابتها، وقد شهدت هذه الحرفة انتشارا كبيرا بحكم أن الحجاز خلال القرن السابع للهجرة ظهر فيها نشاط كبير تمثل في التأليف وجمع الكتب وإنشاء المكتبات، وكثر النساخون نظرا لحاجة الناس إلى الكتب في ذلك العصر، وممن ظهر له نشاط في هذه المهنة بمكة نجد:

يحي بن محمد بن عبد القوي المحيوي بن قطب الدين البجائي (ت 859هـ/1454م) الذي تكسب بالشهادة وحمد فيها[58].

10- التجارة:

بحكم أن مكة كانت محط الحجيج والقوافل منذ القدم فلا بد للتجارة أن تزدهر، ولا زالت هذه المهنة تجانبها إلى اليوم استجابة لدعوة الخليل عليه السلام حينما دعا بالرزق لأهلها لقوله تعالى: (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر...)[59].

فهذه المهنة أبرزت لنا بعضا من المغاربة و الجزائريين امتهنوا هذه الحرفة منهم:

محمد بن يحي الصنهاجي (ت 780هـ/1379م): الذي أمضى جزءا كبيرا من حياته نتنقلا بين مكة واليمن بقصد التجارة[60].

أما **أحمد بن يونس القسنطيني**، فإنه يختلف عن كل الذين ذكروا حتى الآن، لكونه لم يكن متفرغا لأمور التجارة بشكل كلي، إنما كان من العلماء الكبار في عصره، مجاورا بالمدينة المنورة بعد تجوال بين حواضر المشرق العربي والمغرب مشتغلا بالعلم، لكنه من ناحية أخرى كان يخالط الباعة والسوقة من أجل التكسب، إلى حين وفاته سنة 878هـ/1474م[61].

11- الزراعة:

امتهن بعض علماء الجزائريين مهنا وحرفا كل حسب اختصاصه، وفي مجال الزراعة لا سيما في حقل العمل في الحدائق والبساتين ومزارع النخل، اشتغل جزائريون خلال القرن الثامن والتاسع الهجريين، منهم:

أحمد بن صالح الزواوي (ت 855هـ/1451م): فقد قام هذا الأخير بحراسة بساتين النخل بالمدينة المنورة، وكان قبل ذلك بالقاهرة بالجامع الأزهر، وغادره إلى المدينة حيث جاور هناك حتى وفاته[62].

خلاصة ما سبق ذكره فقد كان تأثير علماء المغرب الإسلامي والجزائر خاصة جليا من خلال اسهاماتهم الدينية والعلمية، وكذا الاجتماعية والاقتصادية، من خلال تصدرهم لوظائف

ومناصب هامة وسامية لم يكونوا ليبلغوها لولا مكانتهم بين عامة المجتمع الحجازي وخاصته، فكانوا خير سفير لبلدهم الجزائر، وخير عامل وموظف فيما استؤمن عليه من مهام، فلم يشعر هؤلاء العلماء والفقهاء بغربة داخل وطنهم الثاني " الحجاز "، مما أسهم فعلا في الاندماج الكلي داخل المجتمع الحجازي خلال العصر الوسيط.

خاتمة:

من خلال دراستنا لنماذج من العلماء والفقهاء الذين كان لهم حضور علمي في بلاد الحجاز خرجنا بعدد من النتائج أبرزها:

تعتبر بلاد الحجاز مركز اشعاع فكري وحضاري وقبلة لقاصدي بيت الله الحرام ومسجد رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وبفضل مكانتها العلمية والدينية جعلت العلماء والفقهاء الجزائريين يسعون جاهدين لنيل كل هذه الفضائل والنفحات الإيمانية والنهل من معين علمائها ونيل الإجازات العلمية، فاستطاعوا أن يجدوا لهم موطئ قدم في هذه البلاد.

لقد تمكن العلماء الجزائريون بوزنهم واسهاماتهم من فرض أسمائهم في كتب التراجم المشرقية، وذلك بفعل أدوارهم العلمية والتاريخية، فذاع صيتهم خلال القرن السادس والسابع وصولا إلى التاسع للهجرة أثروا على الحياة العلمية بمكة والمدينة بما تقلدوه من مناصب وكراسي علمية واجتماعية ودينية وسياسية.

قدم علماء الجزائر في بلاد الحجاز جهودا علمية كبيرة حيث درسوا في الحرم النبوي وأنشأوا الحلقات العلمية فيه وفي بعض المدارس، كما قدموا جهودا بارزة في علوم القرآن وعلوم الحديث، وغيرها من العلوم، وكانت هي أبرز الجهود إذ ظهر منهم القراء والمحدثون، والفقهاء المالكية وعلماء اللغة العربية.

إن وجود السكن والإقامة من أربطة ومدارس وفرت لنزلائها العلماء المغاربة والجزائريين فرصة الإقامة والاستقرار لطلب العلم أو تدريسه.

كان للعلماء الجزائريين الدور الفعال في الجانب الاجتماعي حينما تولوا وظائف ومناصب هامة في المجتمع الحجازي كالأربطة، وفي مقابل ذلك كانت للبعض منهم حرفا يتعاطونها كالتجارة وتجليد الكتب والوراقة والنساخة وغيرها.

كان لعلماء وفقهاء الجزائر فضل في إحياء مذهب المغاربة وهو " المذهب المالكي" بجزء من أجزاء الحجاز، واسهامهم في كسر شوكة الشيعة بتلك البقاع الطاهرة.

توصيات واقتراحات:

- ضرورة الوقوف عند أبرز الشخصيات العلمية المغاربية ذات البعد الحضاري وتناول ترجمتها في معاجم متخصصة.
- إنشاء مركز بحثي متخصص في تاريخ دور المغاربة العلمي والديني في المشرق الإسلامي.

إخراج أعمال هذا الملتقى في كتيب يوزع على طلبة العلوم الاجتماعية والإنسانية في الجامعات المتخصصة في التعريف بالجهود العلمية والحضارية للمغاربة في بلاد الحجاز.

المصادر والمراجع

1- ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، ج 3، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، المكتبة العتيقة، تونس، ودار التراث ، ط1، القاهرة، 1971، ص51.

2- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، اعتنى به مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق، 2012، ص229.

3- ابن فرحون أبو محمد عبد الله المالكي،

- نصيحة المشاور وتعزية المجاور، تحقيق حسين محمد علي شكري ، دار الأرقم للنشر والطباعة، بيروت، 1416هـ، ص155.

- تاريخ المدينة المنورة . نصيحة المشاور وتعزية المجاور . ، تعليق حسين محمد علي شكري، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د ت ، ص 134.

4- أبو عصيدة أحمد البجائي، رسالة الغريب إلى الحبيب، تعريف وتعليق وتلخيص أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1993م، ص 19.18.

5- التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، ط2، طرابلس، ليبيا، 2000، ص261.257.

6- خير الدين الزركلي، الأعلام لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، ج1، ط15، بيروت، لبنان، 2002، ص52.

7- السخاوي شمس الدين،

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج4، دار الجيل، بيروت، د ت، ص 302.

- التبر المسبوك في ذيل السلوك، تحقيق لبيبة إبراهيم مصطفى و نجوى مصطفى كامل، ج2، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة، 2005، ص 148.

8- الشوكاني محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع، ج2، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص 119.

9- عبد الفتاح عاشور سعيد وآخرون، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1996، ص157.

10-علي عيسى هيام، الحج إلى الحجاز في العصر المملوكي(648هـ/1250م . 923هـ/1517م)، أطروحة دكتوراه في العلوم الإنسانية، جامعة القديس يوسف، بيروت، 2010، ص 276.

11-عمر فهد النجم ، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ج3، مركز البحث العلمي وإحياء التراث، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1984، ص 460.

12-محمد تقي الدين المكي الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ج5، تحقيق محمد حامد الفقي، دار مؤسسة الرسالة، ط2 بيروت، ص472.

13-المقريزي تقي الدين، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، ج2، تحقيق محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2002، ص 317.

14-النعيمي عبد القادر بن محمد، الدارس في تاريخ المدارس،ج1، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1990،ص404.

15-نويهض عادل ، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، ط2، بيروت، 1980، ص90.

الهوامش:

[1]: شمس الدين السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج4، دار الجيل، بيروت، د ت، ص 302.

[2] : تقي الدين المقريزي، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، ج2، تحقيق محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2002، ص 317.

[3]: تقي الدين محمد الفاسي المكي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ج5، تحقيق محمد حامد الفقي، دار مؤسسة الرسالة، ط2 بيروت، ص472.

[4]: أبي محمد عبد الله بن فرحون المالكي، نصيحة المشاور وتعزية المجاور، تحقيق حسين محمد علي شكري ، دار الأرقم للنشر والطباعة، بيروت، 1416هـ، ص155.

[5]: تقي الدين الفاسي، العقد الثمين، ج2، 326.

[6]: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، ط2، بيروت، 1980، ص90.

[7]: التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، ط2، طرابلس، ليبيا، 2000، ص261257.

[8]: السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص152

[9]: محمد بن علي بن عطية المكناسي أبو عبد الله، انتقل من بلاد المغرب إلى مكة وجاور فيها، كما تنقل بين الشام والحجاز واليمن، وقرأ عليه العديد من طلاب العلم في الحرم المكي، وأجاز العديد من طلاب العلم، منهم أبو بكر محمد بن أحمد القسطلاني، الفاسي، العقد الثمين، ج2، ص 160.159.

[10]: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص 90.

[11]: المقريزي، درر العقود، ج2، ص66.

[12]: النجم عمر فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ج3، مركز البحث العلمي وإحياء التراث، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1984، ص 460.

[13]: السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص206.205.

[14]: السخاوي، المصدر السابق، ج3، ص 315.

[15]: التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 201.

[16]: أحمد أبو عصيدة البجائي، رسالة الغريب إلى الحبيب، تعريف وتعليق وتلخيص أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1993م،ص 19.18.

[17]: المصدر نفسه، ص 65.64.

[18]: نفسه، ص 64.

[19]: السخاوي، الضوء اللامع، ج8، 295.

[20]: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص 265.

[21]: التنبكتي، المصدر السابق، ص 531.

[22]: السخاوي، التحفة اللطيفة، ج1، ص 275.274.

[23]: السخاوي، الضوء اللامع، ج10، ص216.

[24]: التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 236.

[25]: عادل نويهض، المرجع السابق، ص 246.

[26] : الضوء اللامع، ج2، ص 243.

[27] : المصدر نفسه، ج3، ص 167.

[28]: التنبكتي، ص164.163.

[29]: تقي الدين الفاسي، العقد الثمين،ج3، ص426.

[30]: نفسه، ج3، ص426.

[31]: نفسه، ج2، ص231.

[32]: نفسه، ج2، 326.

[33]: السخاوي، ج10، ص23.

[34] : تقي الدين الفاسي، ج2، ص326.

[35]: نفسه، ص 327.

[36]: نفسه، ج2، ص 376375.

[37]: نفسه، ج2، ص 376375، السخاوي، الضوء اللامع، ص55.

[38]: السخاوي، الضوء اللامع، ج7، ص 50

[39]: الشوكاني محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع، ج2، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص 119.

[40]: السخاوي، المصدر السابق، ج 7، ص51.

[41]: الشوكاني، المصدر السابق، ج2، ص120.

[42] : ابن خلدون، المقدمة، اعتنى به مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق، 2012، ص229.

[43]: سعيد بن الفتاح عاشور وآخرون، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1996، ص157.

[44]: السخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، تحقيق لبيبة إبراهيم مصطفى و نجوى مصطفى كامل، ج2، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة، 2005، ص 148.

[45]: ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، ج 3، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، المكتبة العتيقة، تونس، ودار التراث ، ط1، القاهرة، 1971، ص51.

[46]: الزركلي خير الدين، الأعلام لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، ج1، ط15، بيروت، لبنان، 2002، ص52.

[47]: هيام علي عيسى، الحج إلى الحجاز في العصر المملوكي(648هـ/1250م . 923هـ/1517م)، أطروحة دكتوراه في العلوم الإنسانية، جامعة القديس يوسف، بيروت، 2010، ص 276.

[48]: السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص 243.

[49]: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص

[50]: ابن فرحون المالكي، تاريخ المدينة المنورة . نصيحة المشاور وتعزية المجاور . ، تعليق حسين محمد علي شكري، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د ت ، ص 134.

[51]: السخاوي، التحفة اللطيفة، المصدر السابق، ج3، ص 330.

[52]: تقي الدين الفاسي، العقد الفاسي، ج3، ص 426.

[53]: النعيمي عبد القادر بن محمد، الدارس في تاريخ المدارس،ج1، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1990،ص404.

[54]: ابن فرحون، تاريخ المدينة المنورة، ص 107.

[55]: ابن فرحون، تاريخ المدينة المنورة، ص 107، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج2، ص 189.

[56]: ابن فرحون، نفسه، ص 60.

[57]: المصدر نفسه ، ص 165.

[58]: السخاوي، الضوء اللامع، ج10، ص 250.

[59]: البقرة، الآية: 126.

[60]: الفاسي، العقد الثمين، ج2، ص 387.

[61]: السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص 252 وما بعدها.

[62]: السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص 316.